الحداثة وصورة الأخر

د. سلام عبد علي العبادي
كلية الاداب /قسم الاجتماع

المقدمة :

في ظل واقع تكاد تنعدم فيه الخيارات ، أو تختزل فيه حالة الاختيار بين أن تكون أو لا تكون ، يصبح من الصعوبة بمكان التردد أو الانتظار لا سيما عندما تكون حسابات الزمن هي الفيصل في مثل هذه المواقف الحتمية ، هكذا قيدوا وصورة العرب في مواجهة تحديات الواقع الجديد ، والذي تعد الحداثة والنتائج المترتبة عليها من ابرز إفرازاته .

من الشائع كثيراً ، لا سيما لدى الكثير من أبناء المجتمع العربي ، ان مفاهيم مثل التحديث أو الحداثة أو غيرها ترتبط شكلاً ومضموناً بالغرب ، الى درجة أن هناك بعض الانطباعات التي باتت راسخة في أذهان الكثير من العرب ترى ان الحداثة هي شكل من أشكال الغزو الثقافي الذي يمكن أن يؤدي بطريقة أو بأخرى الى ضياع أو فقدان الهوية أو الخصوصية الثقافية التي ما برحت تمثل هاجس عدد غير قليل من أبناء المجتمع العربي والإسلامي ، لكن هذا لا ينفي وجود بعض التوجهات الفكرية – لا سيما لدى بعض النخب المثقفة ، التي تعتقد وترى في الحداثة مخرجاً وحلاً (للازمه الحضارية) التي يمر بها العرب ، هذه الإشكالية وغيرها من الإشكاليات المرتبطة بها ، ستكون محاور اهتمام هذا البحث ، لهذا ولآجل تحقيق الأهداف المتوخاة من هذا البحث ، قسمت هذه المحاور كما يأتي :

الهدف من البحث .
التحديث والحداثة .
الحداثة والعولمة .
الأصالة والمعاصرة : صراع المواقف .
التجربة العربية في التحديث والحداثة .
إشكالية الآخر .
الحداثة بين النظرة إلى الذات والآخر .
الخلاصة .

لدى الشعوب التي تتلقاها ردود أفعال مختلفة ، وتولد لدى الكثير استراتيجيات دفاعية قوية (11)، وعندما نقول ان العولمة مجموعة من الإجراءات التي تسعى الى جعل العالم اكثر اندماجا واعتمادا بعضه على بعض (12) نعني ان هذه الإجراءات سوف تداهم وتخترق الجميع ، لهذا بات بالإمكان توقع ان بعض المجتمعات سوف ترفض الحداثة بدعوى إنها إحدى مقدمات أو إفرازات العولمة أو بدعوى إنها غربية المنشأ (13) ، ومما هو معروف ان الحداثة كالعولمة ظاهرة العصر وقدره وسمته لهذا فأن الوقوف في وجهها ، أو تجنبها ، أو العزلة عنها إنما هو الخروج عن العصر وتخلف وراءه (14) ، ولكن ينبغي الإشارة هنا انه على الرغم من كل دعوات العولمة نحو التوحد والاندماج ، إلا انه لا يمكن ان تكون هناك ثقافة عالمية مطلقة ومحددة ، وانما هناك حاجة فقط الى الانفتاح بالمعنى الاصطلاحي لتعدد الثقافات ، وبصورة أدق بمعنى ظاهرة (الثقافوية) لكونها القاسم المشترك الجوهري للوجود الإنساني (15) لهذا ينبغي ان تتمدن أو تتعصرن الثقافة بحكم تطورها الداخلي واحتكاكها مع الأخر ،وستبقى مشكلة الخصوصية والكونية مطروحة ، ولكن كل خصوصية هي مطالبة اليوم بأن تتطور باتجاه الكونية ، والحداثة كما قلنا سابقاً هي قدر هذا العصر (16) .

صراع المواقف :

يبدو ان جدلية التراث والمعاصرة باتت أحد ابرز المحاور الرئيسة في الفكر العربي المعاصر ، ولا نبالغ أن قلنا أن هذه الجدلية قد تجاوزت حالة الاختلاف الفكري ودخلت في حسابات الاختلاف في المواقف ، بل لنقل صراع المواقف ، وبهذه الصورة أصبحت هذه الإشكالية جدلية مملة من الصعوبة بمكان التنبوء بما سوف تؤول إليه .

ان هذه الجدلية (الأصالة والمعاصرة) هي إشكالية* نظرية لا تقبل الحل إلا بتجاوزها كما يعتقد الجابري ، إذ ان كثيراً ما تطرح هذه الإشكالية في الفكر العربي الحديث والمعاصر على إنها مشكل الاختيار بين الأنموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة ،،، الخ وبين التراث بوصفه يقدم ، أو بإمكانه ان يقدم أنموذجا بديلاً و(أصيلا) يغطي جميع ميادين الحياة المعاصرة (17) ، لكن يبدو ان محور هذه الإشكالية يرتكز حول كيفية التوفيق بين مقتضيات وتوجهات كل من الأصالة والمعاصرة ، فالأصالة تريد الاستمرار في البحث عما هو أصيل ومفيد في الماضي والاتصال به

الحداثة عملية تحدث بأبعاد كثيرة وفي العديد من الميادين ، ويضع هنتغتون للحداثة خصائص عديدة هي : إنها عملية معقدة ، فورية ، منهجية ، ثورية ، مطولة
، عولمية ، متدرجة ، تقدمية ومتجانسة (6) ، ولهذا اصبح بالإمكان القول ان الحداثة ليست وصفة فكرية جاهزة ، بل هي عناء فكري وجهد عقلي فردي وجماعي ضد الذات أساسا من اجل التخلص من مجتمع وثقافة عصور الانحطاط ، وبناء مجتمع وثقافة حديثة ، وهذا يعني ان الحداثة لا تقوم بذاتها ، وانما تتأصل في النسق الاجتماعي الذي يشمل الوجهين المادي والمعنوي (7) .

أما ابرز ما يميز التحديث عن الحداثة فهو ان التحديث يعد الشكل الإجرائي الملموس للحداثة أو قد يوصف أحيانا بكونه مظاهر الحداثة وقشورها ، أما الحداثة فهي اللحظة الواعية التي تتمثل بانتظام العقلانية والفردية والعلمانية والقيم الحرة في اندفاعة حضارية قادرة على أحداث تحولات عميقة في البنية الاجتماعية للمجتمع (8) .

الحداثة والعولمة Modernity and globalization :

غالبا ما يثير مفهوم العولمة الكثير من الجدل حول ماهية هذه الظاهرة المتعددة المعاني ، لكن يكاد يتفق الكثير على أن العولمة بصفة عامة تعني اكتساب الشيء طابع العالمية وجعل نطاقه وتطبيقه عالميا أو تعميم الشي وتوسيع دائرته ليشمل الكل ، مما يعني نقل الشيء المحدود* والمراقب الى غير المحدود وغير المراقب (9) .

لقد مرت العولمة مثل الحداثة بمراحل تاريخية مختلفة ، إذ يربط ظهورها البعض بفترة انتعاش الاقتصاد الأوروبي ، بينما يميل البعض الآخر الى ربط ظهورها بمراحل تطور وسائل الاتصال ، وهي بجميع الأحوال ظاهرة متصلة بمسيرة المجتمعات الإنسانية ، لكن يبقى الشيء المهم في ذلك هو ان العولمة في مضمونها ظاهرة أو نزعة كونية تسعى الى توحيد القيم حول المرأة والأسرة وأنماط الاستهلاك ، وتوحيد طريقة التفكير والنظرة الى الذات والأخر (10) ، وهي بهذا المفهوم ترتبط بدرجة كبيرة بمنظور الحداثة ، بل ان البعض يعتقد ان العولمة هي ذروة قصوى للحداثة ، أو أنها الحداثة في عنفوانها وشراستها وقوتها ، وفي ذروة سيطرتها الاقتصادية والمالية والتقنية ، لذلك غالباً ما نرى ان الحداثة التي تمثلها العولمة تستثير

التجربة العربية في التحديث والحداثة

قد تكون ردود أفعال الدول العربية إزاء التحديات العديدة التي فرضتها طبيعة الحياة السائدة في المجتمع المعاصر ومقتضياتها مختلفة ومتفاوتة بحسب واقع وظروف هذه الدول ، ولكن بشكل عام فقد جاءت ردود الفعل هذه بعد الضغوط الكبيرة التي تعرض لها المجتمع العربي بفعل تغلغل كثير من مفردات الثقافة الغربية العصرية وتنامي نفوذها بشكل بات من الصعوبة بمكان اتخاذ ووضع ضوابط أو قيود داخلية تحد من هذا النفوذ ، أو تحاول احتواء أثاره المباشرة من الناحية العملية في اقل تقدير .

لقد حاولت بعض البلدان العربية معالجة هذا الموقف بالعمل على تحديث نفسها إلا انه يبدو ان معظم هذه المحاولات التحديثية قد بائت بالفشل في تحقيق مبتغاها ، لان عملية التحديث التي اعتمدتها هذه البلدان جاءت مبتورة وغير متناسقة ، فهي فضلا عن كونها تفتقر الى الوضوح في استراتيجيتها وأهدافها ، فهي قد توجهت نحو تقليد الغرب من اجل اكتساب مظهر عصريته بأقصى سرعة ، إذ ان هذه البلدان أرادت الوصول الى ما حققه الغرب في قرون بسنوات قليلة ، ولهذا انمسخ تصورهم عن التحديث والحداثة فاصبح يرتكز على الظهور بالمظهر العصري (24) ، أو على اقتباس بسيط للتحولات الفعلية الناشئة ، ولهذا جاءت الصورة على شكل تلميذية مقلدة ، كسولة أحيانا ، ومشوهة ومتطرفة أحيانا أخرى (25) .

يبدو ان الكثير منا نحن العرب لا زال يفهم التحديث والحداثة بمفهومها التنويري المرتبط بفكرة التقدم ، وهذا الأخير لا يأخذ معناه النقدي ، بل صيغته الإنتاجية البحتة ، واحياناً صورته المظهرية ، وهذا يمثل بحد ذاته تقدم بائس وتحديث وحداثة مشوهين (26) ، ولهذا جاء التصور العربي عن التحديث مشوها ، إذ أدى الفصل ما بين الاعتراف العربي بتفوق الحضارة الغربية في جانبها المادي ، وما بين تفوقها الأيديولوجي ، ان تكون عملية التحديث العربية مبتورة ومزيفة ، إذ اخذ العرب من الحضارة الغربية شكلها وقشورها من دون مضامينها وأساسها ، مما جعل التحديث يرتكز على مبدأ النقل والتحديث من دون الاهتمام بتطوير القدرة الذاتية على الإبداع ، فالعرب يستوردون كل مظاهر العصرية التي تبهر الآخرين لكنها لا تعكس الواقع الذاتي للعرب ، لأنها حصيلة مبتكرات الغرب (27) . وعندما تريد حضارة أو ثقافة ما ان تعبر عن ذاتها ولا تستطيع ذلك إلا عن

واستلهامه وتوظيفه لحل مشكلات الحاضر ، والمعاصرة تحث الخطى في البحث عن افضل منجزات العصر بما في ذلك الاستفادة من منجزات الأقوام الأخرى الفارضة نفسها على مسرح التاريخ الحاضر من اجل المساهمة في مسيرة التقدم البشري (18)

لقد تبلورت إزاء هذه الإشكالية ثلاثة مواقف رئيسة هي موقف (عصراني) يدعو الى تبني الأنموذج الغربي بوصفه أنموذجا للعصر كله ، وموقف متمسك (بالتراث) يدعو الى استعادة الأنموذج العربي الإسلامي أو على الأقل الارتكاز عليه لتشييد انموذج اصيل يقدم حلوله الخاصة لمستجدات العصر ، وموقف (انتقائي) يدعوا الى الأخذ ب(احسن) ما في الأنموذجين معاً والتوفيق بينهما في صيغة واحدة تتوافر لها الأصالة والمعاصرة معا (19) ويبدو أن هذه المواقف تجسدت بشكل كبير في الصراع الفكري بين الراغبين والمطالبين بالتغيير والعصرنة ، وبين الرافضين لذلك (المتمسكين بالتراث) ، وقد أدى هذا الاختلاف والصراع الى تخبط في البحث عن هدف واضح ومشترك ، وبالتالي الى صعوبة بلورة أو اختيار ستراتيجية مناسبة في التعامل مع معطيات الواقع الجديد ، وكانت الصورة السائدة لهذا التناحر أو الصراع الفكري هي ان الراغبين بالتغيير والعصرنة طالبوا بمراجعة التراث مراجعة نقدية واعية تهدف الى الإفادة من إيجابياته ونبذ سلبياته (20) ، كما طالبوا بالتجديد من داخل التراث وذلك عن طريق استرجاعه استرجاعاً معاصراً ، والحفاظ على معاصرته لنفسه ولتاريخيته حتى يصبح بالإمكان تجاوزه مع الاحتفاظ به (21) ، ويبدوا ان هؤلاء ظلت دعواتهم محصورة في نطاق المثقفين وبعض الأكاديميين ولم تتعداها لتتغلغل في أوساط العامة ، في حين وجد الرافضون للمعاصرة جمهوراً عربياً وقاعدة كبيرة لقبول أفكارهم الداعية الى المحافظة على هذا التراث نقياً ، بل والمطالبة بالقطيعة مع الأيديولوجية الغربية العصرية ، وعلى الرغم من ان الواقع العربي قد يراه البعض بأنه قد قسم بشكل تلقائي لصالح الموقف الرافض ، وبقي كثير من العرب على ولائهم التقليدي للتراث (22) ، إلا ان ذلك لا يمنع القول من ان إشكالية ضبابية كإشكالية الأصالة والمعاصرة سوف تفسح المجال لغلبة الاتجاه التوفيقي سواء سمي بالاتجاه الانتقائي أو الاتجاه التلفيقي ، أم تيار الاستجابة الفاعلة أم تيار الأصولية المستنيرة ، ومع ذلك فهي قد تكون غلبة غير مانعة للنقد والمعارضة (23) ما دامت هناك توجهات ورؤى فكرية مختلفة ومتعارضة في منطلقاتها وأهدافها الأيديولوجية والعملية .

إشكالية الأخر

يبدو ان هاجس الأخر بات يشكل العقدة التي ما زالت تنتظر الحلول المناسبة لها ، إذ ما زال الكثير من العرب يعتقد ان الحداثة بمنطلقاتها وأهدافها والأسس التي قامت عليها هي صورة من صور الغزو الثقافي الغربي الذي يستهدف حضارات وثقافات الشعوب الأخرى التي لا تدور في فلك الثقافة الغربية لاسيما الثقافة العربية الإسلامية ، وبعيدا عن الحديث عن مدى صحة هذا الاعتقاد من عدمه لا بد من الاعتراف بان الحداثة هي مشروع حضاري غربي ، وهي مشروع الرأسمالية الأوروبية في لحظة صعودها وانبعاثها ، وهذا المشروع قد اعتمد عددا من الأسس هي : الفردية ، العقلانية ، الاعتماد على العلم والتكنولوجيا ، تطبيق المنهج الوضعي* في البحوث العلمية الاجتماعية ، تبني نظرة خطية للتقدم الإنساني (24) واستقراءا لهذه الحقيقة اصبح بالإمكان القول ان الحداثة بشكلها الغربي كانت وليدة تطور تاريخي – اجتماعي لا يمكننا تجاوزه ، وبالتالي فهي ليست شعارات أو أشكالا سياسية ، بل هي صيرورة تاريخية اجتماعية ، وصلت أليها الدول الغربية بعد حقبة طويلة من العمل المتواصل ، ولهذا اصبح في حكم الواجب العمل على تحرير ساحة الفكر العربي من الأوهام والانطباعات الخاطئة التي ما برحت تعطل العقل وتبدد كل إمكانيات التطور والإبداع الإنساني (35) ، لانه لابد من التمييز بين الحداثة بوصفها نزعة كونية وبين استعمالها من قبل ملاكها الأوائل للسيطرة على الشعوب (36) .

ان عملية التحديث التي يقوم بها أي مجتمع في أي عصر من العصور هي جزءاً من العملية التحديثية الشمولية التي يخوضها الجنس البشري والتي يسعى من خلالها تحقيق تقدمه الحضاري عن طريق زيادة مقدرته على التحكم الإيجابي بالبيئة وتطويعها لخدمة البشرية ، كما ان العصرية ظاهرة موجودة في أوقات مختلفة وبمواصفات مختلفة ، فلكل عصر عصريته ولكل حقبة زمنية مواصفات وانموذج للعصرية ، لهذا فهي ظاهرة نسبية وليست مطلقة (37) كذلك الحال بالنسبة للحداثة فهي انعكاس لمفاهيم ورؤى عقلية تطورت بمرور الزمن ، والحداثة كما قلنا سابقا هي قدر هذا العصر ، وانطلاقا من ذلك ينبغي عزل الحداثة . بوصفها – بنية موضوعية – عن مجمل القيم الغربية الخاصة التي ارتبطت بها كحادث تاريخي ، وتحديد هيكلية الثقافة الغربية نفسها في البنية الجديدة ، لانه على الرغم من الإسهام الكبير للثقافة الغربية في بلورة وظهور الحداثة ، إلا انه

طريق أشكال مستعارة من الخارج فإنها تشوه ذاتها ، وتخنق اندفاعها، ويكون هناك تحول كاذب لاغير (28).

لقد تجاهل القائمون على عملية التحديث العربية حاجة العرب الماسة الى أيديولوجية تطويرية عصرية تحدد لهم مسارهم ، وتوضح أهدافهم ، وتمدهم بالقيم المحفزة على العمل لتحقيق تقدمهم ذاتياً ، وكان هذا التجاهل سبباً رئيساً في فشل العملية التحديثية لأنها أهملت الاهتمام بتحديث مضمون الإنسان العربي لتجعل منه عصريا قادراً على التفاعل مع متطلبات العصر (29) ، لان الإنسان جوهر التحديث والحداثة ، وان عملية التحديث السليمة لا تبدأ بالمظاهر والمؤشرات الكمية ، وانما ينبغي ان تبدأ بالمضمون والجوهر وهو الإنسان في ثقافته وقيمه ونظرته الى الذات والآخر (30) .

لقد كان من نتيجة تخطي العملية التحديثية للإنسان العربي انه اصبح على وجه التعميم يجمع في حياته بين متناقضين ، فمن جهة نجد ان تفكيره هو رهين لولائه التقليدي ولقيمه ومعاييره التي لا تتفاعل في بعض جوانبها مع متطلبات الواقع الحالي ، ومن جهة أخرى نجد ان طريقة حياته ليست محكومة بهذا الولاء وانما تتعداه بالاستفادة غير المقننة من المبتكرات العصرية للآخر ، أي ان طريقة حياة الكثير من العرب باتت لا تتطابق كليا مع طبيعة تفكيرهم ، لكونهم يريدون ان يعيشوا (حياة إسلامية في قالب غربي) (31) .

وتأسيسا على ما تقدم لا بد من القول انه ينبغي على العرب ان يدركوا ان الحضارة العربية الإسلامية كانت رائدة عصرها ، وان هذه الحضارة بحاجة الى الاستمرار والتواصل معها ، وهذا لا يمكن ان يحدث إلا عن طريق الإبداع المادي والفكري ، لان الحضارة هي بمثابة تراكم للمبتكرات والإنجازات المادية والفكرية ، وهذا يعني انه ينبغي العمل على تحديث الثقافة ، لأنه لا توجد خيارات أخرى غير خيارات التحديث ، أما ان تتحدث وتتعصرن ، واما ان تموت أو ان تنتهي (32) ، فالمطلوب هنا نشر التحديث والحداثة على أوسع نطاق ، والنطاق الأوسع كما يرى محمد عابد الجابري هو نطاق التراث (33) ، لهذا ينبغي القول ان العرب بحاجة الى مراجعة ذاتية نقدية لواقعهم الحالي ، لا من خلال المقارنة مع ما وصل أليه الأخر فقط ، ولكن أيضا من خلال النظرة النقدية المتجردة والمتحررة من الأوهام ومن الاستلاب الفكري .

جميع النزعات مطيلة بفلك حالة الأزمة والانتظار ، ولهذا يعتقد البعض أن التوفيقية الراهنة ليست بذلك سوى موقف أيديولوجي ينطوي على اخفاقات محتملة (46) .

بشكل عام ان المعضلة الأساسية كما يرى البعض تكمن دوماً في كيفية التعامل مع ثنائيات الوجود وعلاقتها ب (الثنائية التفاضلية الكبرى) عن الخير والشر ، والأحسن والأسوأ ... الخ (47) ، من هنا فان التوصل الى حل مقنع لما يسمى ب (عقدة الحداثة) يتطلب قبل كل شئ إيجاد الحلول المناسبة لإشكالية العلاقة مع الآخر وما تنطوي عليه هذه الأخيرة من تداخلات وتوجهات فكرية مختلفة .

الحداثة بين النظرة الى الذات والآخر

لا يخفى على أحد ان مسيرة التقدم الإنسانية قد حلفت بالعديد من الإنجازات الفكرية والمادية وليس هناك من شك ان هذه الإنجازات لم تكن حصيلة عطاء مجتمع معين أو حضارة معينة ، وانما كانت حصيلة إسهامات العقل الإنساني بمختلف انتماءاته المكانية والزمانية ، ولعل ما يميز حالة الإبداع في العقل الإنساني هو إنها تمثل أعلى درجات العطاء للفرد في جماعته وللجماعة في عالمها (48) ، لكن صور العطاء والإبداع بمجالاتهما المختلفة تبقى صور معبرة عن واقع زمانها ، ولهذا اصبح معيار تفوق بعض الحضارات أو الثقافات على غيرها هو مدى قدرتها على الإبداع في ذلك الزمان ، وهذا يعني ان لكل عصر لغته وثقافته ، وثقافة الحاضر هي ثقافة زمان وليس ثقافة مكان (49) وهي بكل تجرد ثقافة عصر المعلوماتية وزمن الحداثة بغض النظر عن جذور أو مصدر هذه الثقافة .

ان الحداثة مشروع كلي وكوني يقوم على تجاوز الخصوصيات ، من منطلق وحدة المجموعة البشرية وقيم الترابط الوثيق بين مكوناتها ، وهي مشروع يقوم في منطقه الأعمق على قيم إنسانية شاملة (العقلنة والحرية والتاريخانية) ، حتى ولو كانت هذه القيم مستوعبة داخل منظومات قومية حية وفاعلة (50) ، وانطلاقا من ذلك بات من الضروري التماس لوحدة التاريخ الإنساني ، حيث يصبح الهدف هو التوصل الى عقلنه للحياة الاجتماعية والى الشمولية ، لانه إذا كان التاريخ واحد ، وهدف السباق التاريخي توحيد الإنسانية ، فان العلاقة مع الخارج تصبح ضرورية ومهمة جدا (51) ، ويمكن ان تتجسد هذه العلاقة في التفاعل الثقافي الذي

لا يمكن لها ان تدعي إنها شيدت وحدها ثقافة الحداثة (38) ، فلقد تميزت الثقافة الأوروبية بالتطور اكثر منها بالإبداع ، فهي لم تخترع العلم أو الفلسفة أو التقنية ، ولكنها أعطتها تطورا ، أي إن نجاح أوروبا يكمن في توظيف الفكر في الأشياء ، صحيح ان الحداثة ارتبطت بالعلم ، لكن ينبغي فصل الحداثة عن خصوصية أوروبا (39) لهذا فان الحضارة الغربية أو الأوروبية لا تستطيع ان تتبجح على الحضارات الأخرى ألا بالخلق الخاص وليس بإنجازاتها ، بمفهومها للحرية ، بالمسافة التي تفصلها عن تبني التقليد اللاعقلاني وبالعلاقة التي أقامتها مع تطلع ثقافي عالي (40) .

ان ما يميز أوروبا أو الثقافة الغربية هي إنها لم تتخل عن روحانيتها ، لكنها أزاحتها جانبا ، وان ماديتها الحقيقة استمدت جذورها من مغامرة في الفكر ، فلقد بنت وطورت العلم بتقشف وإنكار للذات ، واعطته تطوراً غير معروف ، وغلفته بالجدية والحقيقة (41) ، واذا كان هذا هو واقع الغرب وواقع الحداثة التي انبثقت من ثقافته ، فهل يتعين على المجتمعات غير الغربية إذا أرادت ان تتحدث التخلي عن ثقافتها الخاصة وتبني عناصر الثقافة الغربية حسب ما يتساءل هنتغتون ؟

يعتقد العروي أن الفكر العربي المعاصر هو أيديولوجية بائسة ، ولذا فهو يرى انه لا بد من الحداثة التي ولدت في الغرب واصبحت مصيراً عالمياً ، لانه إذا كان الغرب منغلقين على تراثهم فليس أمامهم سوى التفكير التاريخي (42) ، وفي هذا الصدد يرى البعض أن التاريخ لن يرحم المجتمعات المتأخرة ان هي رفضت الحداثة بدعوى إنها غربية المنشأ (43) واذا كانت الحداثة النابعة من الغرب تمثل الصورة القائدة للمستقبل ، فينبغي ان تقبل كواقع ، لكنها لا تكون قيمة إلا إذا وحدت الإنسانية (44) .

لكن هناك من يعتقد غير ذلك ويرى ان تجاوز إشكالية علاقاتنا مع الأخر (الغرب) يكمن في مدى قدرتنا على ابتداع (تيار وسط) يحترم الخصوصية وفي الوقت نفسه ينفتح على علوم الغرب وتقنياته ومعارفه مع الحفاظ على نظرة نقدية إنسانية تميز بين عيوب الغرب ومحاسنه من اجل تجنب هوس علاقتنا به ، مقتاً أو عشقاً ، وصولاً الى إقامة علاقة طبيعية معه من دون خضوع أو انمساخ أو تمزقات فردية وجماعية (45) . ويبدو أن فلسفة التوفيق* المقترحة هذه لا تعني المستقبل بقدر ما تقرر واقعاً قائماً لما نشهده من محاولات الجمع والضم بين أجزاء من صورة أوروبا وبين قطع من صورة الذات ، والملاحظ ان التوفيقة تبدو اكثر نجاحاً من غيرها في إيصال فلسفتها الى مستوى السلطة التي تسعى من خلالها الى إرضاء

إذ ان التغيير في الذات وفي الداخل يحتاج بدوره الى توافر مجموعة من الشروط الخارجية والداخلية ، تتجاوز عناصر التوعية والتعليم والتثقيف (59) ، وهذا يعني ان حل (عقدة الحداثة) يتطلب منا الكثير من الخطوات الحياتية والتربوية المستمرة والدائمة التجدد والتطبع لإشكاليات الحداثة المعقدة والمتغيرة (60) ، وان الانتقال من حالتنا الراهنة الى الحداثة تقتضي ان نقوم بنقد صارم ، جذري ، شامل ، شجاع لذاتنا ، لان النقد أساس الثقافة ، والطريق الى المعرفة (61) .

عموماً نحن لا نريد ان ننكر بأنه قد نشأ في اكثر من مكان إزاء الحداثة المفروضة شعور بفقدان الأصالة وبخيانة الذات ، وذلك بسبب تأكيد الغرب بأنه الأنموذج المرجعي للحداثة (62) لكن هذا لا يعني ان صورة الأخر ستظل عائقاً تحول بيننا وبين إبداعنا ، بل لنقل بيننا وبين محاولة الإفادة من حداثة الغرب لإبداع حداثتنا التي تنسجم أو توفق بين قيمنا ومتطلبات العصر .

قد يساعد فردا ما في التغلب على إطار قيود هويته الثقافية ، حتى لا يظل غريبا في الأماكن الثقافية الجديدة ، وان يستطيع دائما إيجاد القيمة الذاتية في علاقته مع المجموعات الثقافية الأخرى ، وبهذه الصورة يمكن تجنب – ولو نسبيا– الصراعات الناشئة عن التصادم الثقافي (52) .

ولعل أول شروط تحقيق العلاقة السوية مع الآخر –كما يعتقد البعض– هو ان نعترف بتمايزنا عنه ،ليس من اجل العداء والخصام ،إنما بالعكس من اجل تجنب نظرتنا الأحادية اليه سلباً أو إيجابا ، وبالتالي إعادة تشكيل علاقتنا بذواتنا الفردية والجماعية ، إذ ان اعترافنا بشخصيتنا وخصوصيتنا يؤدي الى الاعتراف بخصوصية الأخر وشخصيته المتميزة ،وهذا الأمر كفيل بخلق علاقة مساواة وتبادل حضاري (53) ،وبعبارة أخرى إذا كان الأمر يتعلق بمعرفة الذات وتحديد الهوية ، فانه يتطلب معرفة الأخر بطريقة لا تحجبها الصور المركبة على واقع غير معروف أو غير مفهوم (54) ، إذ إن العجز في استيعاب هذا الأمر والعجز عن الاعتراف به يكمن في العجزعن استيعاب الذات واحترام الخصوصية الفكرية للأنا والأخر(55)

أن النظرة السليمة لتجاوز إشكالية العلاقة مع الأخر تتطلب أو تقتضي النقد المزدوج ، أي نقد الذات والأخر ، ولتحقيق ذلك ينبغي الدخول في عملية مراجعة ذاتية هادفة لاستعراض مواطن الضعف في الذات وتحليلها ومحاولة معالجتها والسيطرة عليها من جهة ، ودراسة وتحليل أيديولوجية وقيم الحضارات التي فرضت نفسها على واقع التاريخ الحاضر بهدف استيعابها والاستفادة منها من جهة أخرى (56) ووفقاً لذلك ينبغي ان تعاد قراءة العقل الأوروبي ككل ، لانه قد مارس النقد وباستمرار على نفسه (57) .

ان التفكير العلمي في المستقبل لم يعد يعتمد اليوم على استكناه الغيب كما يعتقد الجابري ، بل غدا ينطلق من الملموسات لطلب الممكنات ، كما انه لا يتحدد بالملموسات وحدها ، لانه إذا كان الأنا لا يتحدد إلا عبر الأخر ، فان أي مشروع للمستقبل يبنيه الإنسان ينبغي ان يؤخذ فيه بالحسبان فعل الأخر وردود فعله ، لهذا ينبغي النظر الى التفكير في المستقبل في جزء منه على الأقل ، عبارة عن محاولة ترمي الى إعادة ترتيب العلاقة مع الأخر ، بل لو لا وجود الأخر لما كان هناك تفكير في المستقبل ، لان هناك شيئاً ينافسنا في حاضرنا ويشكل لنا نوعاً من التحدي (58) ، ولهذا ينبغي ان نجتهد في تحديد ما يجب عمله ، وما يمكن عمله ،

الهوامش

السيد ياسين ، تحديث مصر الإشكاليات المعرفيـــة والمشـــكلات الواقعيـــة ، التقرير الاستراتيجي العربي 2000 ، القاهرة 2001 ، ص18 .

David L.Sills, " international Encyclopedia of the social Sciences", The Macmillan Company & Free Press, NewYork, Vol.-9-10, P 386.

ج. تيمونز روبيرتس ، ايمي هايت ، من الحداثة الى العولمة ، ج1 ، ترجمة سمير الشيشكلي ، سلسلة الكتب الثقافية ، المجلس الوطني للثقافة والفنـــون والآداب ، الكويت ، 2004 ، ص22 .

David L.Sills , op , CIT, P 387

د . محمد سبيلا ، دفاعا عن العقل والحداثة ، مركز دراسات فلسفة الـــدين ، دار الكتاب العربي ، بغداد ، 2004 ، ص1-3 .

ج. تيمونز روبيرتس ، ايمي هايت ، مصدر سابق ، ص 224-226 .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 6-7 .

المصدر نفسه ، ص 26 .

* المحدود هي الدولة التي تقوم بمراقبة وحماية ما بداخلها .

د . حاكمي بو حفص ، العولمة : الاندماج السريع والمنافع المحدودة : حالة الدول النامية ، الإنترنت : موقـــع : http:\\www.uluminania.net ، p2 of 23 .

عبد الجليل كاظم الوالي ، جدلية العولمة بين الاختيـــار والـــرفض ، مجلـــة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 275 ، 2002 ، ص 62 – 64 .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 138 .

ج . تيمونز روبيرتس ، ايمي هايت ، مصدر سابق ، ص 33 .

د . محمد سبيلا ، ص 140 .

د . حاكمي بو حفص ، مصدر سابق ، p5 of 23 .

قسطنطين فون بارلووين ، " التغلب على الاختلافات الطريق الـــى التفاعـــل الثقافي " ، ترجمة ناطق خلوصي ، مجلة الثقافة الأجنبيـــة ، دار الشـــؤون الثقافية العامة ، العدد (3+4) بغداد ، 2004 ، ص 111 .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 108 .

الخلاصة

ان هذا البحث يمثل محاولة لتعرف طبيعة العلاقة بين الحداثة وصورة الأخر ، ويبدوا ان مفهوم الحداثة بحد ذاته يولد أحيانا إشكالية لدى البعض لكونه يتداخل مع بعض المفاهيم الأخرى التي تكاد تكون أهدافها واحدة مثل التحديث والعولمة ، ولكن بشكل عام يكاد يتفق الكثير على ان التحديث يعد الشكل الإجرائي الملموس للحداثة ، في حين تعد العولمة الذروة القصوى للحداثة أو الحداثة في عنفوانها وقوتها .

ويبدو ان موضوع الحداثة وصورة الأخر غالباً ما يثير بعض الإشكاليات النظرية ، لعل أبرزها إشكالية الأصالة والمعاصرة التي كثيراً ما تتجسد بالصراع الفكري بين الراغبين بالتغيير والعصرنة وبين المتمسكين بالتراث ، وعلى المستوى العملي لا زال الكثير من العرب يفهم التحديث والحداثة بمفهومها التنويري المرتبط بفكرة التقدم ، ونتيجة لهذا الفهم اتجهت التجربة العربية في التحديث نحو تقليد الغرب من اجل اكتساب مظهر عصريته بأقصى سرعة من دون الاهتمام بتحديث مضمون الإنسان العربي في ثقافته وقيمه ونظرته الى الذات والأخر ، ويبدوا ان هاجس الأخر وتجاوز إشكالية العلاقة ما برحت تمثل العقدة الرئيسة التي تحول بين العرب وبين الانتقال من واقعهم الراهن الى الحداثة ، ومع كل الصعوبات التي قد تعيق الوصول الى تحقيق هذا الهدف يمكن القول ان حل عقدة الحداثة يكمن في اعتماد منهج النقد المزدوج للذات وللأخر ، ويمكن ان يتجسد ذلك عن طريق القيام بمراجعة ذاتية هادفة لاستقراء وتشخيص مواطن الضعف في الذات بغية معالجتها والسيطرة عليها ، ودراسة وتحليل أيديولوجيا الأخر ومحاولة فهمها بطريقة لا تحجبها الصور المركبة على واقع غير معروف أو غير مفهوم ، من اجل الإفادة من حداثته وصولاً الى خلق حداثة خاصة بالعرب تنسجم أو توفق بين قيمهم أو تراثهم ومتطلبات العصر . نأمل أن نوفق في هذا البحث ومن الله التوفيق .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 109 .
د . محمد عابد الجابري ، التجديد لا يمكن ان يتم إلا مـن داخـل تراثنـا ، مصدر سابق ، ص 20 .
* أي ان العلم لا يبحث إلا في ما يمكن قياسه .
السيد ياسين ، مصدر سابق ، ص 19 .
د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 33 .
المصدر نفسه ، ص 77 .
د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 5-7 .
هشام جعيط ، مصدر سابق ، ص 122 .
د . خالد زيادة ، تطور النظرة الإسلامية الى أوروبا ، ط1 ، معهد الإنمـاء العربي ، بيروت ، 1983 ، ص 239 – 241 .
هشام جعيط ، مصدر سابق ، ص 109 .
المصدر نفسه ، ص 107 – 109 .
د . خالد زيادة ، مصدر سابق ، ص 234 .
د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 140 .
هشام جعيط ، مصدر سابق ، ص 101 .
سليم مطر ، مصدر سابق ، ص 26 .
* من دعاة هذه الفلسفة الظهطاوي ، جمال الدين الافغـاني ، محمـد عبدة ، زكي نجيب ، انظر : د . خالد زيادة ، مصدر سابق ، ص 193 – 196 .
المصدر السابق نفسه ، ص 197 .
سليم مطر ، مصدر سابق ، ص 29 .
د . ناصيف نصار ، ص 152 .
قسطنطين فون بارلووين ، مصدر سابق ، ص 108 .
السيد ولد أباه ، القومية والتحديث : الإشكال الملتبس ، الإنترنت ، الموقـع : page 1 of 4 – 1 of 3 info @ balagh .com
هشام جعيط ، مصدر سابق ، ص 100 .
قسطنطين فون بارلووين ، مصدر سابق ، ص 110 .
سليم مطر ، مصدر سابق ، ص 25 .
د . خالد زيادة ، مصدر سابق ، ص 253 .
سليم مطر ، مصدر سابق ، ص 334 .
د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 5 .

* الإشكالية كما حددها الجابري هي منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوافر في إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا في إطار حل عام يشملها جميعاً ، وبعبارة أخرى ان الإشكالية هي النظرية التي لم تتوافر إمكانية صياغتها ، فهي توتر ونزوع نحو النظرية ، أي نحو الاستقرار الفكري . انظر د. محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط4 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2000 ، ص 15

د . محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مصدر سابق، ص 15 .

د . ناصيف نصار ، التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 84 ، بيروت ، 1986 ، ص 194 .

د . محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مصدر سابق ، ص15 – 16 .

د . علي الجرباوي ، العرب والازمة الحضارية ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 74 ، بيروت ، 1985 ، ص 5 .

د . محمد عابد الجابري ، التجديد لا يمكن ان يتم إلا من داخل تراثنا ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 278 ، بيروت ، 2002 ، ص 20 .

د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 18 .

د . ناصيف نصار ، مصدر سابق ، ص 151 .

د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 4 .

سليم مطر ، الذات الجريحة : إشكاليات الهوية في العراق والعالم العربي " الشرقمتوسطي " ، مؤسسة أهل البيت ، إيران ، 1383 هـ ش ، ص 25 .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 1 .

د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 19 .

هشام جعيط ، أوروبا والإسلام : صدام الثقافة والحداثة ، ط2 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 2001 ، ص 64 .

د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 20 .

د . محمد سبيلا ، مصدر سابق ، ص 16 .

د . علي الجرباوي ، مصدر سابق ، ص 20 .

قائمة المصادر

1-السيد ولد أباه ، القومية والتحديث : الإشكال الملتبس ، الإنترنت ، الموقع : info @ balagh .com
2- السيد ياسين ، تحديث مصر الإشكاليات المعرفية والمشكلات الواقعية ، التقرير الاستراتيجي العربي 2000 ، القاهرة 2001.
3-ج. تيمونز روبيرتس ، ايمي هايت ، من الحداثة الى العولمة ، ج1 ، ترجمة سمير الشيشكلي ، سلسلة الكتب الثقافية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 2004.
4-د . بشارة خضر ، أوروبا والوطن العربي (القرابة والجوار) ، ترجمة د . جوزيف عبد الله ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،1993.
5-د . حاكمي بو حفص ، العولمة : الاندماج السريع والمنافع المحدودة : حالة الدول النامية ، الإنترنت : موقع : http:\\www.uluminania.net
6- د . خالد زيادة ، تطور النظرة الإسلامية الى أوروبا ، ط1 ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، 1983.
7- عبد الجليل كاظم الوالي ، جدلية العولمة بين الاختيار والرفض ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 275 ، 2002.
8- د . علي الجرباوي ، العرب والأزمة الحضارية ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 74 ، بيروت ، 1985.
9- د. محمد سبيلا ، دفاعاً عن العقل والحداثة،مركز دراسات فلسفة الدين،دار الكتاب العربي،بغداد ، 2004
10- د . محمد عابد الجابري ، التجديد لا يمكن ان يتم الا من داخل تراثنا ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 278 ، بيروت ، 2002 .
11- د . محمد عابد الجابري ، اشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط4 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2000 .
12-د . محمد عابد الجابري ، مسالة الهوية : العروبة والإسلام ... والغرب ، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1997.

د . محمد علي الجابري ، التجديد لا يمكن ان يتم إلا مـن داخـل تراثنـا ، مصدر سابق ، ص 21 .

د . محمد عابد الجابري ، مسالة الهوية : العروبة والإسلام ... والغـرب ، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1997 ، ص 89 – 90 .

منير شفيق ، في الحداثة والخطاب الحداثي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1999 ، ص 156 – 157 .

سليم مطر ، مصدر سابق ، ص 130 .

منير شفيق ، مصدر سابق ، ص 192 .

د . بشارة خضر ، أوروبا والوطن العربي (القرابة والجوار) ، ترجمة د . جوزيف عبد الله ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،1993 ، ص 69 .

13-د . ناصيف نصار ، التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 84 ، بيروت ، 1986.
14- سليم مطر ، الذات الجريحة : إشكاليات الهوية في العراق والعالم العربي " الشرقمتوسطي " ، مؤسسة أهل البيت ، إيران ، 1383 هـ ش.

15-قسطنطين فون بارلووين ، " التغلب على الاختلافات الطريق الى التفاعل الثقافي " ، ترجمة ناطق خلوصي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العدد (3+4) بغداد ، 2004.
16-منير شفيق ، في الحداثة والخطاب الحداثي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1999
17-هشام جعيط ، أوروبا والإسلام : صدام الثقافة والحداثة ، ط2 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 2001 .
18- David L.Sills, " international Encyclopedia of the social Sciences", The Macmillan Company & Free Press, NewYork, Vol.-9-10, P 386.

الرسالة هو القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان نزل للتحرير الانساني العام ،فقد حرر الإنسان من الأوهام ، والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ،والبشرية من الخرافات والضلالات والجمود ومعاداة النظام وكراهية التقدم ومحاربة الفضائل والأخلاق الكريمة ، فتضاءلت الروح الفردية لتحل محلها روح الجماعة ، وتلاشت مبادئ الطغيان الديني والاجتماعي والمادي ،وحلت مكانها مبادئ الأيمان بالعدالة والمساواة وحريات الناس وكرامتهم ، فانتهى عهد الضلال والمضلين ، وانقضت العادات والتقاليد المرذولة التي كانت تبيح المنكرات وتعدها أعمال مألوفة معروفة ،ان رسالة الإسلام هي رسالة الأيمان والروح الإنسانية الكريمة هي الشفاء للعالم مما هو فيه من فوضى وطغيان وظلم واستعمار وجشع مادي زعزع الآمن والسلام وأشعل الحرب في الارض ،واوجد العداوات بين الأمم

فحري بالإنسانية أن تنهل من هذا المنهل العذب لتعود إلى رشدها وتقلع عن غيها ،ليسود الوئام والسلام ربوع المعمورة وليسعى كل إنسان لخدمة أخيه الإنسان [1] ،والاسلام هو أن نشهد أن لا اله ألا الله ،وان محمد عبده ورسوله ،اما الأيمان وهو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله ،اما الإحسان فهو أن تعبد الله كأنك تراه فأن لم تكن تراه فهو يراك ،وتتجلى أهمية هذا الموضوع كوننا ستناول حقوق الإنسان في الإسلام مقارنة بما موجود من وثائق رسمية ودولية لحقوق الإنسان أما الهدف من هذا البحث فهو أن نبين للناس أن الإسلام دين الله الحنيف الذي بعث الله به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،سبق كل الأنظمة الوضعية وكل اللوائح القانونية التي أقرت حقوق الإنسان بقرون عديدة وإنما توصلت أليه المواثيق الدولية ولوائح حقوق الإنسان في العالم كان الإسلام قد سبقها في الوصول قبل عدة قرون ،

١٩٥١م ص ١٤

١. محمد عبد المنعم الخفاجي ،المصدر السابق ص١٥